المقياس: تاريخ الجزائر الثقافي 1 المستوى: 1ماستر التخصص: أدب جزائري

المحاضرة 2

الطرق الصوفية

مثلت الطرق الصوفية . بصرف النظر عن توجهاتها الفكرية والسلوكية المختلفة أهم مكونات المجتمع الجزائري لفترة طويلة من الزمن، فالمؤرخون يتفقون على أنها بدأت في الانتشار في الجزائر، وكسب نفوذ اجتماعي ابتداء من القرن *16*م، ثم أخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن *18*م والربع الأول من القرن *19*م، فهي بالتالي تشكل جزءا مهما من تاريخ الجزائر الديني والثقافي والاجتماعي، بل والسياسي.

أ . تعريف الطرق الصوفية:

هناك عدة تعاريف للتصوف في الماضي والحاضر وسنتوقف عند تعريف "ابن خلدون" الذي يقول: ((وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيها مما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخَلق في الخلوة للعبادة))، وحسب رأي "ابن خلدون" أن ذلك كان معروفا في الصحابة والسلف، فالتصوف عنده هو: عبادة ومجاهدة للنفس ومحاولة لإدراك الحقيقة. كما قال في موضع آخر: ((ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والعرفان)) أي أن غاية التصوف هو التوحيد والمعرفة. وفي مكان آخر يذكر ابن خلدون أن أصل التصوف (ويسميه الطريقة أو طريقة القوم) هو محاسبة النفس على الأفعال والتروك، أما رجال الطرق أنفسهم فيختلفون حول تعريف التصوف حسب الوسائل التي يستعملونها للوصول إلى أهدافهم. إن البعض يراه في الممارسات والوسائل التي توصل إلى الحقيقة، وهي ممارسة التقشف والقيام بالواجبات الشرعية على أتم وجه والتحلي بالأخلاق والفضائل وتجنب كل الشبه والمزالق. بينما يراه آخرون منهم الوصول إلى الإلهام والكشف والرؤى والسرحان في عوالم الأسرار الغامضة. ولكن النتيجة واحدة تقريبًا؛ فهي التسامي والتطهر للوصول إلى الدرجة العليا في القربى إلى الله ونيل رضاه.

أما الطريقة؛ فهي طريق خاص بنوع من الناس، يتميّزون عن غيرهم برؤية معينة في المنهج اللازم اتباعه للوصول للحقيقة المطلقة عبر مراحل ومقامات محددة ، تجتهد كل طريقة في استقائها من منابع ومصادر تعتقد أنها يقينية. وانطلاقا من هذا المفهوم كانت كل طريقة صوفية تعتمد . للتّدليل على صحتها وشرعيّتها . على سلسلة من الصّالحين والأعلام تتّصل دائما بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي بدوره . حسب الطرق . تلقّى أوراد الطريقة وأذكارها وتعاليمها عن جبريل عليه السلام عن ربّ العزة جلّ جلاله، والرسول صلى الله عليه وسلم بدوره لقنها لعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.

ب . الطرق الصوفية في الجزائر:

***1* . الطريقة القادرية:**

تعد الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية التي دخلت الجزائر عن طريق بجاية، ثم انتشرت في الغرب الجزائري والجنوب الغربي من الصحراء وبافي مناطق الجزائر وغرب تونس، وفروعها كانت موجودة في مختلف المدن ولها زوايا وأضرحة ومساجد في الجزائر وتلمسان وغيرها، كما كان لها أوقاف كثيرة، كانت ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم في بغداد.

وتمثل القادرية أساس ومنطلق كل الطرق الصوفية في الجزائر، فالمدينية (نسبة إلى أبي مدين شعيب بن الحسين) تفرعت عن القادرية، وتفرعت عن المدينية الطريقة الشاذلية، وعن الشاذلية تفرعت طرق كثيرة كالدرقاوية والجزولية واليوسيفية والعيساوية والشيخية والطيبية والحنصالية، وإن كانت الشاذلية قد تفرعت عن القادرية إلا أنها أخذت منحى صوفيا يختلف الصوفي القادري.ويقدر الفرنسيون عدد أتباعها في الجزائر سنة *1882*م بـ (*574.14* إخوانيا و *268* مقدما و *29* زاوية).

تنتسب الطريقة القادرية إلى الشيخ "عبد القادر أبو محمد محي الدين بن أبي صالح عبد الله" وقيل "ابن موسى جنكي دوست الجيلالي" نسبة إلى مدينة جيلان (وراء طبرستان)،

ولد بجيلان عام *1088*م وقد إلى بغداد عام (*488*هـ) *1095*م حيث درس الفقه الحنبلي، ويقال أيضا أنه لم يهتم بالصوفية حتى حضر مجلس الشيخ "أبو حمد الدباسي. في عام (*521*هـ) *1127*م أي عندما جاوز الخمسين من العمر أصبح من أشهر علماء بغداد في الفقه الحنبلي، ثم لبس لباس الصوفية وبني لنفسه مدرسة عام (*528*هـ) *1135*م، لم ينضم أي أحد إلى طريقته خلال حياته، وبعد وفاته بدأ الناس يسيرون على نهجه، وقد أخذ المريدون بنشر الطريقة فكان لها مواقع كثيرة في العالم الإسلامي ومنه شمال أفريقيا، توفي الشيخ "عبد القادر" سنة *561*هـ ودفن في مدرسة ببغداد. وهو يعتبر عند المتصوفين سلطان الأولياء، وقطب الأقطاب، والغوث، وعضد الإسلام، وله كرامات وخوارق تنسب إليه، وأتباعه يحلفون بجاهه. ويلقبونه أيضا بمولى بغداد، والشيخ الجيلاني عالم وله تآليف منها (لطائف الأنوار).

الزاوية الأم للطريقة توجد في بغداد، ولها فروع في الجزائر، وكل فرع مستقل عن الآخر، وأصحاب هذه الفروع يتصلون مباشرة بالأصل في بغداد، إذ أن السلسلة تَرِدَان من هناك، وعلى كل فرع من فروع الزاوية مقدم. وهناك من يذكر أن أول من أسس فرعًا للقادرية في الجزائر هو الشيخ "مصطفى بن المختار الغريسي" حوالي سنة (*1200*هـ) *1785*م بالقيطنة الواقعة على وادي الحمام قرب مدينة معسكر. والواقع أن فروع هذه الطريقة كانت موجودة من قبل في مختلف المدن، ولها زوايا وأضرحة وقباب ومساجد في الجزائر وتلمسان وقسنطينة. وبجاية وغيرها. ولها أوقاف كثيرة، كانت ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم ببغداد، وقد بقي الحال كذلك في العهد الفرنسي أيضا. ومن أشهر الذين تولوا مشيخة الزاوية بعده ابنه "محي الدين" والد الأمير "عبد القادر الجزائري بطل المقاومة الجزائرية في القرن *19*م.

2 . الطريقة الرحمانية:

تعتبر الطريقة الرحمانية أوسع الطرق انتشارا في عموم الجزائر إبان القرن *19*م حيث كانت تستحوذ وحدها على أكثر من *50* بالمائة من عدد الزوايا حسب إحصائية عام *1892*م للمستشرف الفرنسي "لويس رين" بلغ عدد زوايا الطريقة الرحمانية *188* زاوية،

وأتباعها *156214* إخوانيا. وتنتشر هذه الزوايا خصوصا في الشرق والوسط والجنوب حتى في تونس، ومن هذه الزوايا (زاوية صدوق، برج عزوز، طولقة، أولاد جلال، خنقة سيدي ناجي، قسنطينة)، ومن أهم مراكز الطريقة في أواخر العهد العثماني: الحامة قرب العاصمة، وآيت إسماعيل ببلاد القبائل، وزاوية صدوق بناحية سطيف، والبرج قرب طولقة، أولاد جلال، وخنقة سيدي ناجي، ووادي سوف، والمراكز الأربعة الأخيرة تقع بالواحات. ويذكر عن الطريقة الرحمانية أنها قامت بدور محوري في نشر التضامن بين سكان المنطقة ونشر العلم والتآخي خاصة في الريف القسنطيني.

يعود تأسيس الطريقة الرحمانية إلى "محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري الأزهري" المولود حوالي *1720*م في قبيلة آيت إسماعيل التي كانت جزءا من حلف قشتولة في قبائل جرجرة، الواقعة على بعد *15*كلم شرق مدينة ذراع الميزان (تيزي وزو)، ويلقب بالزواوي نسبة بلاد زواوة التي نشأ به، كما يلقب بالأزهري نسبة إلى جامع الأزهر (مصر). زاول تعليمه الأول في مسقط رأسه، ثم واصل تعليمه في الجزائر العاصمة، وفي عام *1739*م توجه لأداء فريضة الحج، وفي عودته استقر بالجامع الأزهر فترة طويلة مترددًا على العلماء وشيوخ التصوف مثل "محمد بن سالم الحفناوي"، حيث أصبح "محمد بن عبد الرحمن مريدًا وتلميذًا له حيث أدخله الطريقة الخلوتية. وبعد أكثر من ثلاثين عاما عاد إلى الجزائر بعدما تلقى الأمر من شيخه في مصر "محمد بن سالم الحفناوي" بالعودة إلى بلده ونشر الطريقة الخلوتية، وكان ذلك عام (*1177*هـ) *1757*م، حيث أسس زاوية بمسقط رأسه (آيت إسماعيل) وشرع في الوعظ والتعليم، وقد التف حوله جموع الناس من سكان جرجرة. ولكي يوسع من دائرة دعوته أنتقل إلى (الحامة) بالقرب من العاصمة ويأسس بها زاوية وأخذ في نشر تعاليم الطريقة الخلوتية، لكن سرعان ما أثار سخط المرابطين والعلماء ربما خوفا على نفوذهم. فعاد إلى مسقط رأسه وبعد ستة أشهر من عودته جمع مريديه وأخبرهم بقرب أجله وعين من يخلفه في منصبه وهو "علي بن عيسى المغربي"

لم يحصر "محمد بن عبد الرحمن" نشاطه في نشر دعوته الدينية الصوفية على منطقة جرجرة والعاصمة فحسب، وإنما مدّ نشاطه أيضا إلى اقليم الشرق الجزائري حيث قام بتعيين خليفة له من أبناء قسنطينة وهو "مصطفى بن عبد الرحمن بن الباش تارزي

الكرغلي"، فقام هذا الأخير بنشر تعاليم الطريقة في الإقليم الشرقي حيث نصّب عدة مقاديم أشهرهم "محمد بن عزوز" في واحة البرج قرب بلدة طولقة. بعد وفاته (*1208*هـ) *1793*م ازدادت الطريقة الرحمانية نجاحًا واتسعت دائرة نفوذها مما زاد في هياج الأتراك وحنقهم، لذا فقد قاموا بمحاولة لوضع حد لتدفق الزوار من كل مكان على الزاوية الأم بآيت إسماعيل فدفعوا بثلاث مجموعات استطاعت إحداهما نقل جثمانه إلى الحامة حيث دفن في احتفال مهيب، ثم بنوا عليه مسجدا وقبة، على أن سكان قرية آيت إسماعيل حينما تحققوا أن الجثة لم تفارق قبرها الأصلي بعد أن نبشوه اعتقدوا أن جثة شيخهم قد ازدوجت ومنذ ذلك الحين لُقب "محمد بن عبد الرحمن" بـ :(بوقبرين).

مهما يكن من أمر؛ فإن خليفته "علي بن عيسى" الذي بقي مدة *43* عامًا في منصبه (من *1208*هـ . *1251*هـ) استطاع أن يدير الزاوية الأم بكل حكمة ونجاح، مما أكسب الطريقة انتشارًا واتساعًا في النفوذ سواء في وسط البلاد أو شرقها وجنوبها، إلا أن موته أفقد إدارة الزاوية الالتحام والوحدة حيث أن خلفاءه لم يتمكنوا من بسط هيمنتهم على مقاديم الزاوية البعيدة التي أهلنت استقلالها عن الزاوية الأم.

3 **. <u>الطريقة التيجانية</u>:**

ظهرت الطريقة التيجانية في أواخر القرن *18*م على يد مؤسسها الشيخ "أحمد التيجاني" المكنى بـ "ابن العباس أحمد محمد التيجاني الشريف" وقد تواجدت مراكزها في الجزائر في العهد في : عين ماضي وتيماسين والأغواط وتوقرت وورقلة ووادي سوف.

ولد "أحمد التجاني في عين ماضي سنة (*1150*هـ) *1738*م فقرأ بها على شيوخها القرآن إلى أن بلغ نحو العشرين سنة فتوجه إلى فاس لأخذ العلم على علمائها. وتنقل إلى عدة مناطق منها (بوسمغول . توات . لبيض سيدي الشيخ، تلمسان وغيرها)، وبفاس التقى بأعلام التصوف وتحاور معهم وأخذ عنهم تعاليم التصوف ومبادئ التربية الروحية، وكان أول أساتذته الشيخ "أحمد بن حسان القادري" من مدينة فاس ثم تتلمذ على يد الشيخ "مولاي الطيب الوزاني" شيخ الطريقة الطيبية، وقد دام مكوثه بمدينة فاس حوالي *18* سنة كان خلال يدرس ويتفقه في شتى العلوم الدينية والشرعية. وفي سنة *1773*م وأثناء رحلته إلى الحج

ولما بلغ منطقة الزواوة أخذ عند الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري وأخذ عنه الطريقة الرحمانية الخلواتية، ثم واصل رحلته إلى أن بلغ مقصده في شهر يناير *1774*م هناك اتصل بشيخ هندي يدعى "أحمد بن عبد الله" وهو صوفي ورع وتقي زاهد فجالسه مدة شهرين اثنائها توفى الشيخ الهندي، وخلف للتجاني عمله ومعارفه في الطريقة الصوفية. وفي رحلته مر التجاني بالقاهرة وهناك التقى الشيخ "محمد الخيضري" الذي فوضه لنشر تعاليم الخلواتية في شمال افريقيا، فانطلق مباشرة إلى مدينة فاس حيث مكث مدة يتعلم ويعلم العلوم الدين وأسس الطريقة الصوفية الخلواتية، ثم انتقل إلى مدينة تلمسان ومنها توجه إلى قصري بوسمغون والشلالة بالصحراء الشرقية، وهناك بنى خلوة له وانقطع للعبادة، فمكث بها ما يقارب ثمانية عشر سنة داعيا إلى مذهبه، ثم انتقل بين المناطق الصحراوية الفاصلة بين توات والسودان الغربي وتونس يدعو إلى الإسلام وينشر تعاليم طريقته الصوفية، فكان كلما نزل بمكان استأنسه أهلها أطال المكوث عندهم مربيا ومرشدا ويؤسس هناك زاوية له يعين عليها مقدما يكلفه بتلقين طريقته. واستمر بنشر دعوته إلى أن وافته المنية سنة *1815*م بمدينة فاس المغربية، التي استقر بها بعد مطاردة باي وهران "محمد الكبير" له واستلائه على قرية عين ماضي، وترك ذخرا كبيرا من المؤلفات الدينية أهمها: (الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية من فيض الحضرة الأحمدية التيجانية، وهي شرح لقصيدة الهمزية للبوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، و'جواهر الحقائق في شرح الصلاة المسماة ياقونة الحقائق والتعريف بحقيقة سيد الخلائق).